التربية على القيم في المدارس الأجنبية بين الخصوصية والكونية

فرنسا أنموذجا

الباحثة أميمة بونخلة

باحثة في سلك الدكتوراه

جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك

المغرب

ملخص:

تعتبر الأنظمة التعليمية الركيزة لبناء الأساس الثقافي والأخلاقي لأفراد المجتمع، في سياق يوازن بين الخصوصية والكونية. وهنا تبرز أهميَّة دراسة المنظومات التربوية المختلفة والعوامل المؤثرة فيها، وما يجعل منظومة أكثر جذبا لانتباه الدارسين دونا عن غيرها هو إما كونها استطاعت أن تؤسس لسياسة تعليمية تقوم على أرضية أخلاقية صلبة، تراعي إنسانية القيم رغم الخصوصيات التاريخية، الثقافية، الجغرافية.. لكل دولة، أو عجزها عن ذلك، وهي حالة الضياع التي أطلق عليها دوركايم مفهوم "Anomie" الذي يرمز إلى حالة من التصدُّع الأخلاقي في المجتمع.

في هذا البحث سنتعرف على خصائص نموذج أوروبي تجاوزت سياسته التعليمية الحدود الجغرافية، محاولين الوقوف على ما به من عثرات في الجانب القيمي، بعد العروج على مميزاته.

الكلمات المفتاحية: تربية؛ قيم؛ مجتمع؛ أخلاق.

Abstract:

Educational systems are considered the cornerstone for building the cultural and ethical foundation of individuals within a framework that balances between specificity and universality. Here، the importance of studying various educational systems and the influencing factors comes to the forefront. What makes a system more captivating to learners than others is its ability to establish an educational policy grounded in a solid ethical foundation، considering the humanity of values despite historical، cultural، and geographical specificities for each country. Alternatively، the lack thereof results in a state of disarray، referred to by Durkheim as the concept of "Anomie،" symbolizing a condition of moral breakdown within society.

In this research، we will explore the characteristics of a European model that has transcended its educational policy beyond geographical boundaries، attempting to identify any shortcomings in the values aspect after highlighting its advantages.

Keywords: Education; values; Educational values; society; ethics

مقدمة:

يعتبر موضوع التربية على القيم من الموضوعات التي تفرض نفسها اليوم بقوة في الساحة الأكاديمية، وذلك لما يشهده العالم من خلل في الميزان القيمي نتج عنه تزايد مظاهر الانتهاكات الصارخة لقيم المجتمعات.

رغم التحديات و الاكراهات التي يواجهها نظام التعليم في فرنسا، إلا أنه يظل حسب تصنيف مؤشر الجودة العالمي من الدول 20 الأفضل عالميا، ونظرا لتزايد اهتمام المدارس العالمية بموضوع التربية على القيم، فقد كان من اللازم دراسة هذه النماذج لفهم سياستها التعليمية و مدى تأثير المؤثرات الاقتصادية، الدينية والاجتماعية عليها، وحتى نتمكن من استقاء العبر و الحكم من هذه التجارب، باعتبار أن الانفتاح على الآخر و دراسة تجربته هو الكفيل بجعلنا قادرين على تجويد أنظمتنا التعليمية، مستفيدين مما نجح فيه دون الوقوع في نفس أخطائه و دون الانسلاخ عن هويتنا الدينية و الثقافية.

يعتبر النموذج الفرنسي من النماذج التي تلفت انتباه الباحثين والدارسين لعدة عوامل:

. فرنسا قوة اقتصادية، ولها وزن في الاتحاد الأوروبي.

. الصراع الإيديولوجي في فرنسا رغم قولها بعلمانية نظام التعليم الفرنسي.

. علاقة فرنسا التاريخية بدول إفريقيا.

. التحديات والاكراهات التي تواجهها مدارس البعثة الفرنسية في الدول المسلمة، باعتبار أن فرنسا من أكثر الدول التي تتواجد فروعها في مختلف دول العالم.

كثر الجدل في السنوات الأخيرة حول ماهية القيم التي تربي وتدافع عنها فرنسا، خصوصا بعد تصريحات ماكرون رئيس فرنسا المعادية للإسلام ولمختلف مظاهره، ناهيك عن تزايد مستوى قمع المسلمين في فرنسا باعتماد مختلف الوسائل

المتاحة من إعلام ومدارس وغير ذلك..، مما يجعلنا نتساءل عن ماهية هذه القيم التي يدافع عنها المجتمع الفرنسي وعن حدودها هي عوامل عدة إذا تجعل من نظام التعليم في فرنسا نظاما مثيرا للاهتمام يستحق الدراسة والبحث في أبعاده الدينية والسياسية.

بناء مفاهيمي:

عرف إيميل دوركايم عالم الاجتماع الفرنسي التربية بقوله:

«هي الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال الصغيرة التي لم تصبح بعد ذلك ناضجة للحياة الاجتماعية، وموضوعها إثارة وتنمية عدد من الاستعدادات الجسدية والفكرية والأخلاقية عند الطفل، والتي يتطلبها المجتمع السياسي في مجمله والوسط الخاص الذي يوجه إليه».[1]

يعتبر الفرنسي إميل دوركايم واحدا من أشهر علماء الاجتماع في العالم الذين أسسوا لسوسيولوجيا التربية، مساهما في إثراء المكتبة بمؤلفات تعتبر مراجع في المجال، نذكر منها **"التربية الأخلاقية"** "Education morale"، و"التطور البيداغوجي في فرنسا "L'évolution pédagogie en fronce".

يعتبر دوركايم التربية من الركائز التي تقوم عليها الدولة الحديثة، وما يميز نظرياته التربوية أنه من دعاة علمنة التربية، أي فصلها نهائيا عن سلطة الدين، وهو ما يمكننا أن نعتبره ثورة على نفوذ التربية المسيحية التي كانت تعرفها المدارس الفرنسية في فترة من الفترات، والتي ولدت خلافا حادا بين أتباع الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تتخذ من مركب "كنيسة وعرش" شعارا لها؛ وبين التيار الجمهوري الذي يعتبر نفسه الوريثَ الشرعيَّ لمبادئ الثورة الفرنسية، وشعاره: "أمَّة وقانون".

حسب دوركايم فالتربية تعبر عن النظام الاجتماعي والثقافي الخاص بكل مجتمع، والذي يحدد بدوره نمط التربية السائدة داخل المجتمع، مجليا تأثير الفوارق الاقتصادية والمجالية عليها.

«وحتى اليوم ألسنا نرى أن التربية تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية، وحتى باختلاف الجهات الجغرافية؟ فتربية المدينة ليست كتربية البادية، وتربية البرجوازية ليست كتربية العامة، يمكن القول إن هذا النظام لا تقره الأخلاق، وأنه من البقايا التي لن تلبث أن تزول.»[2]

التربية على القيم أو ما يصطلح عليها دوركايم بالتربية الأخلاقية، هي تربية تعمل على إنشاء طفل متمثل لمجموعة من القيم توجه سلوكه وتصرفاته، دون أن ينفي عن هذه العملية تأثرها بالطابع الإيديولوجي للمجتمع، فالتربية معنيَّة بالمحافظة على وجود المجتمع واستمراره في الزمان والمكان، الأمر الذي يشرعن لتدخل الدولة في رسم ملامح الأنظمة التعليمية، حتى تخدم توجهها العام.

أما القيم في الحقل التربوي فهي **"مجموعة المعايير الموجهة لسلوك الإنسان ودوافعه في تناسق أو تضارب مع الأهداف والمثل العليا التي تستند إليها علاقات المجتمع وأنشطته، ولذلك فهي تتميز عن غيرها من الدوافع السلوكية، كالعادات والاتجاهات والأعراف، في كونها تتضمن سياقا معقدا من الأحكام المعيارية للتمييز بين الصواب والخطأ، بين الحقيقي والزائف، وتمثل وعيا جماعيا، وتكون أكثر تجريدا ورمزية وثباتا وعمومية، كما تكون أكثر بطأ في التكوين وتهم غاية من غايات الوجود، وامتثالا لأوامر، تنبع من داخل الإنسان وليس بناء على ضغوطات خارجية."**[3]

التعليم في فرنسا، بين منافسة الأفضل وتراجع المردودية.

رغم تذبذب فرنسا في مؤشر جودة التعليم دافوس، فمرة تتقدم للمراتب الأولى وأحيانا تتراجع في التصنيف، إلا أنها تظل من الدول 20 الأفضل عالميا في مجال التعليم، وإن كانت دول آسيا استطاعت التفوق عليها في السنوات الأخيرة، رغم ما عانته هذه الدول بسبب الحرب العالمية الثانية، والتي كان من الممكن أن تكون الآن في صفوف

الدول المتعثرة إلا أنها استطاعت العودة بقوة للساحة، مستثمرة ثروتها البشرية.

ترتيب الدول حسب مؤشر جودة التعليم العالمي دافوس[4](2021):

الدول 20 الأفضل عالميا[5]:

1-فنلندا	2-اليابان	3-كوريا الجنوبية	4-الدانمارك	5-روسيا
6-النرويج	7-المملكة المتحدة	8-الكيان المحتل	9-السويد.	10-هونغ كونغ.
11-هولندا	- 12بلجيكا	13-ألمانيا.	14-الصين	- 15سنغافورة
- 16البرتغال	17-هنغاريا	- 18استونيا.	19-فرنسا	- 20الولايات المتحدة.

الدول الآسيوية.

الدول الإسكندنافية[6].

ملاحظات:

-أولا: نجاح أغلب دول شرق آسيا في الوصول الى أفضل النتائج عالميا في منظومة التعليم:كوريا الجنوبية، اليابان سنغافورة وهونج كونج.

-ثانيا: هيمنة جل الدول الإسكندنافية على مراتب متقدمة عالميا، باستثناء آيسلندا و جزر فارو.

-ثالثا : تقدم ملحوظ و قفزة نوعية قامت بها روسيا، جعلتها تنتقل من المرتبة 20 إلى 13 في السنوات الأخيرة، فالمرتبة 5 في آخر تصنيف.

-رابعا: غياب تام للدول النامية و العربية التي لا تزال تتذيل القائمة.

-خامسا: رغم تذبذب فرنسا في السنوات الأخيرة بين المراتب 20 الأولى فما فوق، استطاعت في آخر تصنيف التقدم بمعدل درجتين.

تحتل فرنسا بتخصيصها 7% من الناتج المحلي الاجمالي للتربية موقع الصدارة بين بلدان منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي من حيث الجهد المبذول على صعيد التربية. وتعتبر مساهمة الدولة في هذه النفقات اساسية بسبب الخيارات التي وضعتها فرنسا منذ قرن، والمتمثلة بديمقراطية التعليم، وبانفتاحه على الجميع وبمجانيته منذ الحضانة وحتى الجامعة.

تصدر نظام التعليم الفرنسي مراتب متقدمة عالميا جعله محط أنظار المهتمين، ومحطة تجذب التلاميذ من مختلف دول العالم. حيث تستقبل 522 مدرسة فرنسية في الخارج حاليًا 370 ألف طالب في 139 بلدًا. ومن بين هؤلاء الطلاب 35 في المائة من الطلاب الفرنسيين المقيمين في الخارج و65 في المائة من الطلاب الأجانب الذين اختارت أسرهم أن يتابعوا دروسهم في مؤسسات التعليم الفرنسي.

وتسهم هذه الشبكة الواسعة في بروز فرنسا في الخارج وتبيّن أيضًا الامتياز التربوي الذي تتسم به المناهج الفرنسية[7].

انفتاح فرنسا على دول العالم حتى المسلمة منها وعملها على افتتاح فروع فيها، جعلها تواجه عدة تحديات مرتبطة بقدرة هذه المدارس على احترام هوية هذه الدول الثقافية والدينية، ومدى قدرتها على الاحتكام لمنظومة القيم الإنسانية السامية، محاولة ترسيخ روابط السماحة والأخوة، وأواصر المشترك الإنساني بين مرتادي هذه المدارس وباقي أفراد المجتمع.

يقوم نظام التعليم الفرنسي على مبادئ كبرى، جعلت من مجانية التعليم وعلمانيته في مختلف المراحل التعليمية مهمة أساسية للدولة:

1-المجانية La gratuité :

مبدأ المجانية في مدارس فرنسا الابتدائية، تم فرضه سنة 1881، وفي التعليم الثانوي منذ سنة 1933، وتقوم الدولة بتوفير المقررات الدراسية واللوازم المدرسية وجعلها في متناول الآباء.

2-الاستقلالية la neutralité:

التعليم العمومي في فرنسا مستقل: الاستقلالية السياسية والفلسفية مفروضة في المدارس الفرنسية.

3-العلمانية la laïcité :

وتتمثل في:

-غياب المرجعية الدينية في المناهج الدراسية.

-علمانية المشتغلين في القطاع.

-منع كل عمليات التبشير داخل المدارس الفرنسية.

4-إجبارية التعليم l'obligation scolaire .

أهم المراحل التاريخية التي مر بها نظام التعليم الفرنسي:

"أقول أمام مجلس سياسيٍّ وفي وجه حكومة مؤلَّفة من رجال سياسة ما يجب قوله: ألا وهو الإشارة إلى مجموعة سياسية تقوم بعمل سياسي تحت ستار الدين .. وأؤكِّد لكم أن الدولة تتعرض لهجوم من كلِّ حَدَب وصوب؛ وإنَّا نجد فيها صدعًا باسم الدين؛ وليس في ذلك سوى مسألة سياسية بحتة.. لقد تسلَّل مرضُ التيار الديني في عمق ما نسمِّيه الطبقة الحاكمة في بلادنا."

ليون غامبيتا[8]، 1877.

"فالمقصودون، إذن، بـ"أتباع التيار الديني" هم نحن، أساقفةً وكهنةً ومؤمنين، وهذه الكاثوليكية هي مَن تمَّ وصفُها بـ"العدو". إذن فنحن كلنا متهَمون بالعداء للوطن، ليس من قبل الصحافة الراديكالية فحسب، بل ومن قبل مجلس النواب والحكومة أيضًا."

أسقف باريس[9]،1877.

في الفترة التي كانت الكنيسة فيها تسيطر على قطاع التعليم عمدت إلى إقصاء كل من يخالفها ويخالف توجهها الديني، فقد قامت بطرد العلمانيين من المدارس ومنعتهم المشاركة في التربية والتعليم،

· أما من الناحية التعليمية، فقد صدر قانون فالو Falloux حول التعليم والمدارس الذي يعطي الكنيسة الكاثوليكية دورًا حاسمًا في النظام التعليمي الفرنسي؛ من ذلك:

-في المدارس الابتدائية: تأكيد أولوية التعليم الديني على بقية المواد ودور الكاهن في تحديد ذلك.

-في المدارس الثانوية: الحرية المطلقة للإداريين والمعلِّمين في تحديد مضمون المادة التعليمية.

وقد استغل هذا القانون القيّمون من رجال الدين لإبعاد المدرّسين العَلمانيين في سهولة واستبدال آخرين من الأخويات الدينية بهم.[10]

وكذلك فعل بهم العلمانيون بعد ثورتهم ضد هيمنة الكنيسة الكاثوليكية وتقلدهم مناصب خولت لهم التحكم في زمام الأمور، حيث قاموا ب:

- إلغاء التعليم الديني في المدارس الرسمية.
- إبعاد رجال الدين عن التعليم العالي.
- إعادة هيكلة المجلس الأعلى للتعليم الرسمي، بحيث تمَّ استبعاد رجال الدين منه؛ وإصدار مرسومين ضد الرهبانيات الدينية غير المرخَّصة.
- عدم السماح لأيّ فرد ينتمي إلى رهبانية دينية غير معترَف بها بإدارة أية مؤسَّسة، لا من قريب ولا من بعيد.
- إلغاء التعليم الديني في المدارس الرسمية.
- صدور مرسوم بنزع الصليب من المدارس الرسمية.
- إغلاق جامعات التعليم اللاهوتي الكاثوليكية.
- إصدار قانون بوضع المدارس الرسمية تدريجيًّا بين أيدي العَلمانيين، على أن يكون جميع أعضاء الهيئة التدريسية تدريجيًّا من العَلمانيين.
- تحريم التعليم ورئاسة منصب مديرية التعليم على أعضاء الرهبانيات.
- إلغاء المنح الدراسية لطلاب العلوم الدينية.
- إلغاء وظيفة "المشرف الروحي" في المدارس.
- منع حمل رموز أو ارتداء لباس يعبّر به طلابُ المدارس أو المعاهد الرسمية عن الانتماء الديني:

يُمنَع الطلاب في المدارس والمعاهد الرسمية حمل رموز أو ارتداء لباس يعبّرون به جهارة عن انتمائهم الديني (المادة1).

عاشت فرنسا في فترة طويلة من تاريخها صراعا شرسا بين الكنيسة التي حاولت فرض تعاليمها الدينية على الجمهورية والتحكم في قطاع التعليم، وبين العلمانيين الذين رفضوا الرضوخ لهيمنة الكنيسة وعملوا على الدعوة للعلمانية.

لئن ظل الصراعُ بين هذين التيارين حادًّا جدًّا خلال 30 عامًا (1875–1905)، حيث صدرتْ أهم التشريعات العَلمانية التي طبعت الحياةَ الفرنسية بطابعها حتى الآن، فإنه لم يكن كذلك دائمًا خلال 217 عامًا، وهي الفترة الممتدة من الثورة الفرنسية حتى اليوم. فقد تمَّ اتخاذُ إجراءات شبه عَلمانية في ظلِّ حكومات مَلَكية، وكذلك إجراءات دينية في ظل حكومات جمهورية.[11]

فهل يمكننا القول إن فرنسا قد قطعت تماما مع كل ما هو ديني في مدارسها؟ أم أنه لا يمكن لدولة مهما حاولت الفصل بين الدين والدولة أن تنجح في ذلك تماما، الأمر الذي ينعكس على مرجعية القيم التي تتبناها المدارس؟

القيم في مناهج التعليم الفرنسية:

تستمد قيم الجمهورية الفرنسية مرجعيتها من من الوثائق الرسمية التالية:

. الميثاق العالمي لحقوق الانسان (1789).

la déclaration des droits de l'homme et du citoyen

. ديباجة الدستور (1946).

la préambule de la constitution

. دستور الجمهورية الرابعة (1958).

la constitution de la république

حرية، مساواة وأخوة، هي قيم الجمهورية الكبرى، التي تعمل وزارة التربية والتعليم الفرنسية على استثمار مختلف الطرق البيداغوجية وتوظيف المناهج الدراسية وكل ما أتيح لها من إمكانيات لتنشئة التلاميذ عليها، وقد عمدت الوزارة إلى تنظيم تكوينات يسهر على تأطيرها أفضل المتخصصين في مجال التربية والتعليم.

تعمل المدارس الفرنسية على تنشئة تلاميذها على مجموعة من القيم التي تتماهى وقيم الجمهورية الرئيسية، معتمدة في ذلك وسائل تربوية مختلفة وطرق بيداغوجية متنوعة، كبيداغوجيا المجموعات، التي تعمل على جعل التلميذ يحس بأهمية العمل الجماعي وتزرع فيه قيم الجماعة...، وكذلك باعتماد مختلف وسائل التكنولوجيا الرقمية.

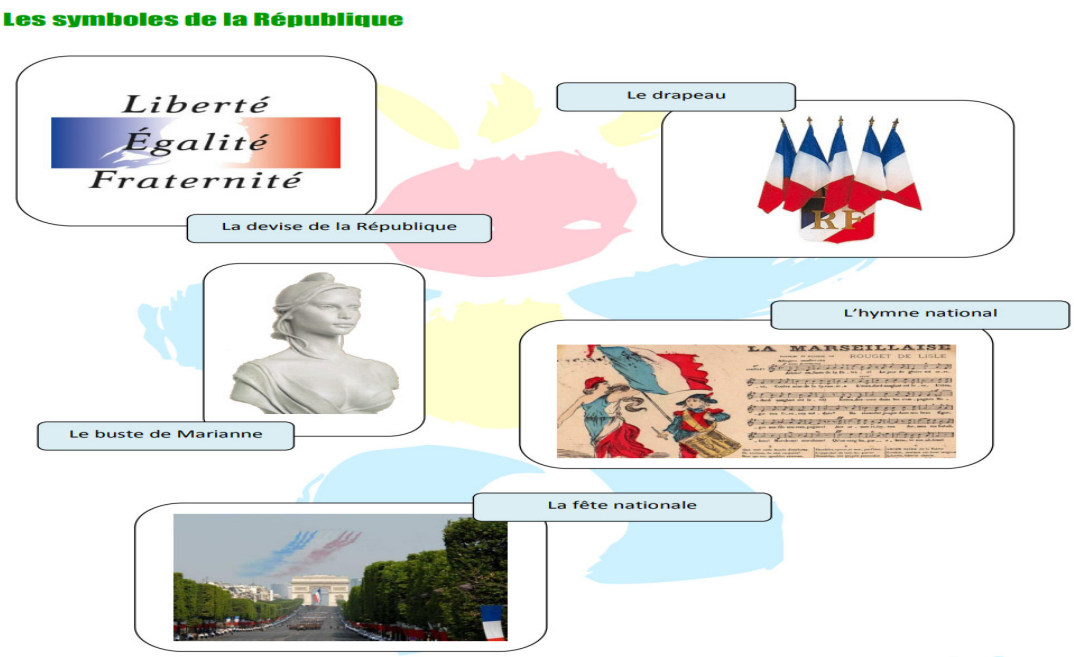

الشروط التي تحرص وزارة التعليم الفرنسية على توفيرها لإنجاح هذه البرامج التعليمية[12]

تتمثل كفايات مادة التربية الأخلاقية والمدنية فيما يلي:

. القدرة على التفكير النقدي.

. القدرة على التواصل.

. القدرة على البحث.

. المواطنة الإيجابية.

وللوصول إلى الأهداف المسطرة، تعتمد الطرق البيداغوجية التالية:

1_تفاعل طرق التدريس:

L'interactivité des méthodes pédagogiques:

تأثير فصول التربية المدنية على التلاميذ يزداد خصوصا في المرحلة الإعدادية، لذلك فمن المهم أن تتاح لطلاب المدارس الثانوية الفرصة لمعالجة مجموعة متنوعة من الموضوعات، مناقشة القضايا المستجدة، وتطوير علاقة مع الوثائق المستخدمة خلال الدروس.

2_استخدام تكنولوجيا المعلوميات، وإشراك التلاميذ في اختيار المواضيع التي تتم دراستها:

L'usage informationnel d'Internet et l'implication des élèves dans le choix des sujets étudiés:

أثبتت الدراسات التي تجريها الوزارة ومراكز الدراسات زيادة في متابعة التلاميذ للمعلومات السياسية والمشاركة في المناقشات، بالإضافة إلى إقامة مناقشات سياسية داخل الفصل الدراسي.

3_مشاركة الطلاب في الحياة الجماعية للمؤسسة:

La participation des élèves à la vie collective de l'établissement

تشجيع مشاركة التلاميذ في الحياة الجماعية،و انعكاسه إيجابا على التلاميذ بحيث يسهل عليهم الاندماج في الجمعيات والمشاركة في الأنشطة التطوعية.[13]

Figure 1 : Pour vous être citoyen c'est... (Réponses en %)

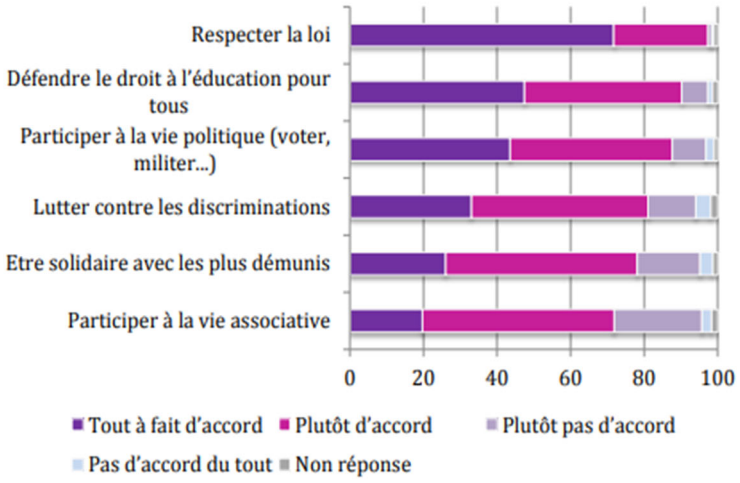

منذ إنشائه، عمل المجلس الوطني لتقييم النظام المدرسي على تطوير موضوعه "المدرسة والديمقراطية"، ففي أعقاب هجمات يناير 2015، أصدر المجلس مذكرة يطالب فيها بضرورة إيلاء أهمية أكبر لموضوع القيم، وقد قام المجلس بدراسات إحصائية عدة أشرك فيها التلاميذ، ومنها تلك المرتبطة بتجليات التربية المدنية والاخلاقية في نظرهم، حيث صوت حوالي 70 في المئة على كون المواطنة عندهم تعني احترام القانون،

وأقل نسبة صوتت على كون المواطنة تعني المشاركة في العمل الجمعوي.[14]

Figure 6 : Pour chacun des enseignements suivants reçus à l'école, diriez-vous qu'ils sont importants pour former les citoyens ? (Réponses en %)

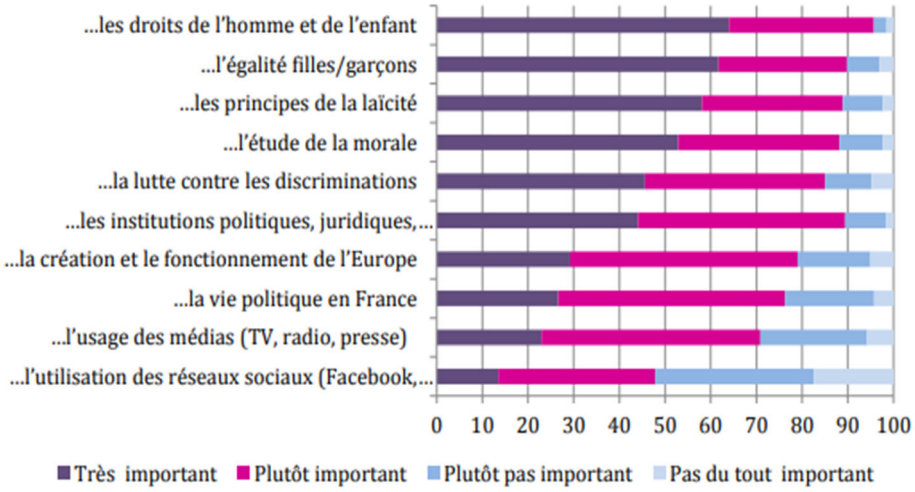

وفي استفتاء قام به المجلس الوطني الفرنسي بمشاركة أولياء الأمور، حول ماهية المواد التي يجب تلقينها للتلاميذ في مادة التربية المدنية والأخلاقية، صوت المشاركون على المواد التالية بالترتيب من الأكثر تصويتا إلى الأقل:

. حقوق الإنسان.

. المساواة.

. العلمانية.

. التربية الأخلاقية.

. محاربة التمييز.

توضح الجداول المرفقة ما يتم تدريسه في مادة التربية المدنية في السنوات الأولى ابتدائي، ويتمثل أهم ما يتم تلقينه للتلاميذ فيما يلي:

الحياة الجماعية:

_التعاون على إنجاز مشاريع القسم.

_الدفاع عن وجهة نظر المجموعة.

_التفكير في حلول للمشاكل التي تعترض المجموعة.

_إيجاد حلول لوضعيات مشكلة.

_احترام القوانين.

_التداخل بين الحرية الشخصية وحرية الآخر.

_المساواة.

_منع الألعاب الخطيرة.

.آداب التعامل.

.قانون السير.

.حماية النفس.

. قيم الجمهورية.

.معرفة الحقوق والواجبات.

.ضوابط التعامل مع التكنولوجيا الحديثة.

. تاريخ الجمهورية.

. تاريخ أوروبا.

. أهمية اللغة الوطنية.

. المواطنة الإيجابية.

. الميثاق الأخلاقي.

. احترام القانون الداخلي للمدرسة.

. العلمانية.

. القيم الإنسانية.

التربية المدنية الإيجابية
– يتعرف التلاميذ على كيفية تنظيم الهياكل و المؤسسات للعمل المجتمعي. –التعرف على ديمقراطية المؤسسات. –التفكير النقدي. –القدرة على الاندماج في المجتمع و احترام قيم المساواة والأخوة.. –تعرف قيم الجمهورية. وكل تربية مدنية لا تنجح في ترسيخ قيم الجمهورية والقيم الإنسانية فهي تربية سلبية. [15]

صورة الآخر في المناهج الدراسية الفرنسية

من الملاحظ في المناهج الدراسية المعتمدة في المدارس الفرنسية، أنها تطورت كثيرا في طريقة تناولها للموضوعات المرتبطة ب صورة العرب والمسلمين مثلا، من التسعينيات إلى اليوم، محاولة إظهار انفتاحها وتقبلها للآخر. إلا أن انتصارها للفرنسي ما يزال ظاهرا وجليا في مختلف المواد التعليمية،

فقد ذكرت الدكتورة مارلين نصر في كتابها "صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية"، المنشور سنة 1995، هذا التفوق العرقي الذي تتشبع به النصوص بدء من

السلك الابتدائي، ففي القصص المعتمدة في المقررات الفرنسية نجد التباين الكبير بين العربي والفرنسي[16]:

العرب/البدو/المور	الفرنسي
دونية أخلاقية: جبن، خوف..	تفوق أخلاقي: شجاعة..
نقص عقلي: تخلف وسذاجة..	تفوق عقلي: لا يخطؤون..
دونية في المهام: عمال وأجراء لدى الفرنسيين..	تفوق في المهام: رؤساء، قادة..
دونية اقتصادية: قلة الموارد.	تفوق في الموارد.

ويمكننا القول أنه رغم مرور ما يزيد عن عشرين سنة من تأليف الكتاب، فلم يتغير شيء في سياسة التعليم الفرنسية، سوى تعويض بعض النصوص المعبرة عن ذلك بشكل صريح، إلى أخرى ضمنية.

وكذلك توظيف الصور المعتمدة والمنتقاة بعناية في خدمة التوجه الإيديولوجي للدولة.

إنها حضارة الصورة تعود من بعيد، لتزحزح حضارة الكتابة شيئا فشيئا، فقد آن الأوان لنكون وعيا بصريا، وثقافة بالصورة، قصد الانخراط في حضارتها وفهم لغتها المتكثرة، لأن الشريك/الآخر (الاقتصادي، والتجاري، والثقافي...) لن يمهلنا لنلتقط أنفاسنا حتى يغرقنا في عالم من الصور والبصريات الافتراضية، لهذا لابد من أن نستعد من الآن، فالصورة نحيا بها وتحيا بنا، ما فقهناها قراءة وتأولا.[17]

أمثلة:

صورة مأخوذة من مقرر مادة التاريخ والجغرافيا للسلك الإعدادي، مكون التربية المدنية، درس حول الحق في التمدرس.

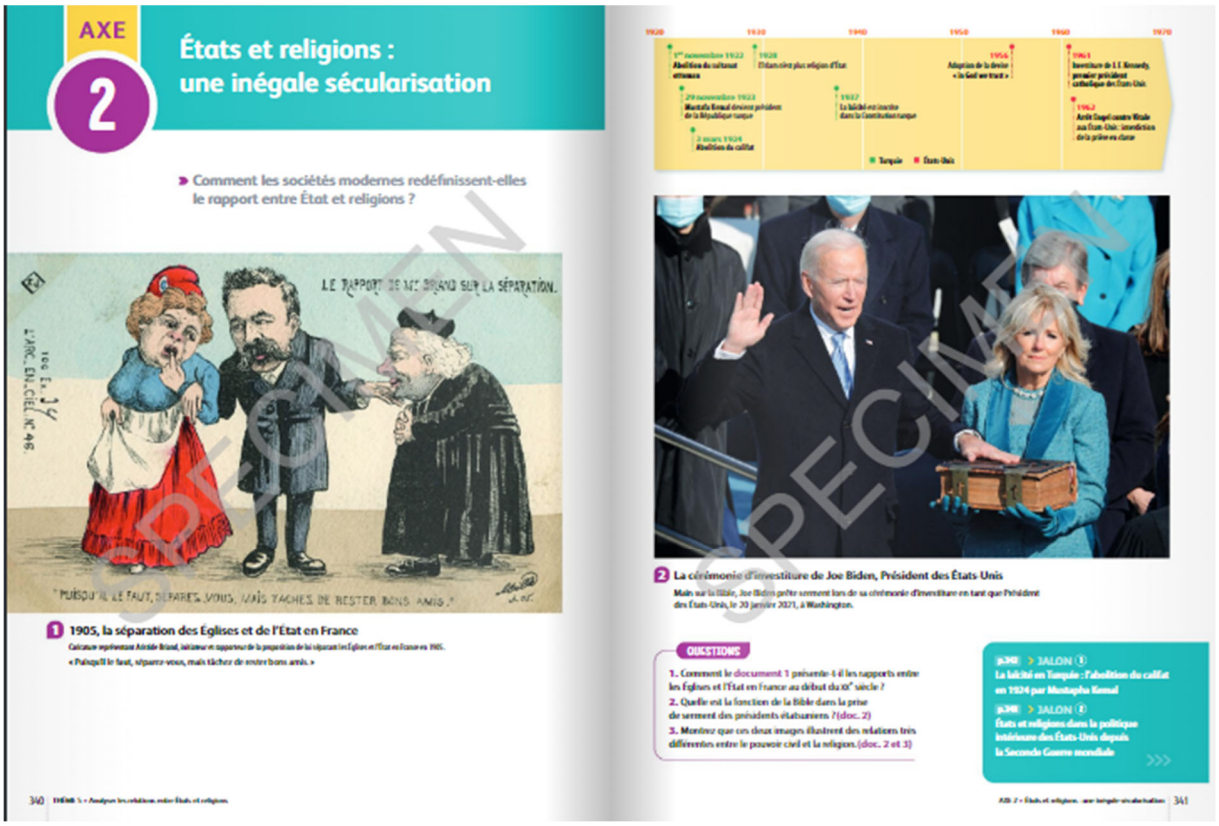

صورة مأخوذة من مقرر التاريخ والجغرافي للسلك الثانوي التأهيلي، مكون التربية المدنية، درس حول الأديان.

بين التنظير للقيم الكونية وواقع المجتمع الفرنسي:

بين كونية التنظير وخوصصة التنزيل فروقات قد تصل حد انتهاك القيم باسم الدفاع عنها، وكثيرا ما تتجلى هذه الإشكالات في المجتمعات الغربية التي ترفع شعارات العلمانية والدفاع عن حقوق الإنسان، خصوصا فيما يتعلق بسياسة تعاملهم مع المسلمين.

تعتبر المدارس أرضية خصبة لتنزيل القيم والتنشئة عليها؛ وفق مفهوم القيمة ومحدداته لدى الدولة، فمفهوم قيمة الحرية في المدارس الإسلامية ليس هو نفسه في المدارس الأجنبية نظرا لاختلاف المرجعيات، وهو أمر لا ضير فيه ما إذا تم جعل الطالب يستوعب الخصوصيات الحضارية في ذات الوقت الذي نؤسس فيه لما هو كوني تؤطره أرضية مشتركة.

اتخذت فرنسا قيما ثلاثا شعارا للجمهورية "المساواة.. الأخوة.. الحرية"، وأسست لعلمانية الدولة قاطعة الطريق أمام الكنيسة الكاثوليكية، قائلة بأن العلمانية هي الكفيل بتحقيق نهوض حضاري تاريخي بعيدا عن سلطة الدين، عاملة بذلك على توظيف قطاع التعليم في خدمة أهدافها السياسية والثقافية، فمنعت ارتداء كل ما يمثل رمزا دينيا في المدارس، وشددت على ضرورة تشبع المشتغلين في القطاع بسياستها التعليمية.. وما إلى ذلك من اجراء ات قد تبدو عادية ما دمنا نقول بضرورة احترام الخصوصية، لكن ما يعاب على فرنسا التناقض الصارخ بين ما تنادي به في المحافل العامة وبين واقع المجتمع الفرنسي. ففرنسا التي ترفع شعار الأخوة والمساواة هي ذاتها التي تضيق على حق المهاجرين وحتى المسلمين من أصول فرنسية في التوظيف، وهي نفسها التي منعت التلميذات المسلمات من ارتداء العباءة، وأغلقت مدارس إسلامية تضم المئات من التلاميذ منتهكة حق التمدرس، دون أن تسلم حتى مدارس البعثة الفرنسية الموجودة على الأراضي العربية من تجليات هذا التناقض.

التربية على القيم في مدارس البعثة الفرنسية

خصصت الدولة الفرنسية مبلغ 25 مليون يورو إضافي لوكالة التعليم الفرنسي في الخارج، بغية تعزيز الموارد البشرية، من خلال تعيين ألف موظف إضافي من بين موظفي وزارة التربية الوطنية المعارين لغاية عام 2030، أي ما مجموعه عشرة آلاف موظف[18].

تتمحور خطة تطوير التعليم الفرنسي في الخارج حول أربعة محاور:

تعزيز جاذبية العرض التربوي والتعليمي؛

يمثل تعليم اللغات إحدى نقاط قوة المدارس الفرنسية في الخارج، التي اختارت منذ زمن بعيد التعليم المتعدد اللغات. وثمة مسارات جرى تكييفها وتعزيزها لتعليم اللغات الأجنبية من رياض الأطفال إلى المراحل الثانوية. وسيجري توسيع نطاقها لتطال أكبر عدد ممكن من المؤسسات التعليمية. وسيجري إنشاء أقسام دولية وأوروبية وشرقية جديدة في المدارس التكميلية والثانوية.

إنّ المدارس التابعة لشبكة التعليم الفرنسي في الخارج مؤهلة لتصبح، أكثر من أي وقت مضى، مختبرات للابتكار في مجال التعليم الرقمي. وسيجري تطوير التعليم المتخصص في "العالم الرقمي وعلوم تكنولوجيا المعلومات" على نطاق الشبكة بأكملها. ويمكن لجميع المؤسسات التعليمية الانتفاع بالموارد التعليمية الرقمية باللغة الفرنسية ذات الجودة العالية والمتاحة على منصة " فرنسا للتعليم" الجديدة.[19]

توسيع الشبكة القائمة ودعم إنشاء مدارس جديدة؛

تبسيط إجراءات منح الاعتماد للمؤسسات التعليمية: يثبت الاعتماد تقيّد المؤسسة التعليمية بمبادئ التعليم الوطني الفرنسي وبرامجه ونظامه التربوي. وسيجري تيسير عملية افتتاح مستويات جديدة، وإنشاء مؤسسات تعليمية جديدة من خلال الحفاظ على شرط الجودة والتميز التربوي.

إشراك الأسر في الشؤون المدرسية على نحو أفضل؛

مواكبة الشبكة على نحو أفضل لخدمة الدبلوماسية الفرنسية.

القول بوحدة القيم الإنسانية لا يعني القول بوحدة المرجعيات التي تؤطرها، وهنا تبرز التحديات التي تعترض مدارس البعثة الأجنبية التي غالبا ما نجد تناقضا صارخا بين القيم التي تدعو إليها وبين تصرفاتها.

كثر الجدل في السنوات الأخيرة حول ماهية القيم التي تلقن للتلاميذ المغاربة داخل مدارس البعثة الفرنسية، وتعددت الموضوعات التي فتحت نقاشا واسعا حول مرجعية هذه القيم ومدى احترامها لمرجعية الدول المستضيفة،

كحدود الحرية الشخصية والمساواة...، فإذا كانت فرنسا ترفع شعار المساواة داخل حدودها، فهي بعكس ذلك ترسخ للتفاوت الطبقي خارج حدودها، ولا تراعي اختلاف الهويات الثقافية والمرجعيات الدينية.

"للتعليم تأثير عميق على السلوك الاجتماعي والسياسي الوعي السياسي للمغاربة الذين تلقوا تعليمهم في النظام الفرنسي موجه نحو قضايا ليست لها علاقة كبيرة بالمغرب. التوعية المدنية في المؤسسات الفرنسية تعّرف التلاميذ المغاربة بالمؤسسات الفرنسية وتتجاهل نسبيا المؤسسات المغربية. ينتج عن ذلك أن جزء هام من النخبة المغربية لا تهتم بالشؤون السياسية المغربية"[20].

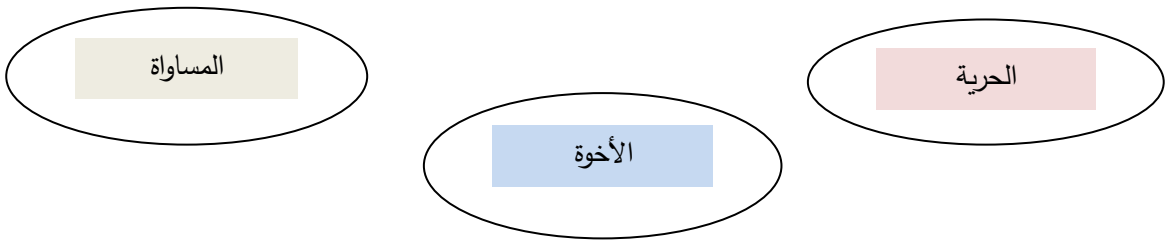

تفقد المؤسسات التعليمية طابعها التربوي حين تصبح أرضية لتصريف الأزمات الديبلوماسية والخلافات السياسية. حوادث عديدة عرفتها مدارس البعثة الفرنسية في المغرب مثلا، نزعت عنها الطابع العرضي والمعزول، وأدخلها في إطار تصريف العداء الممنهج. بدء بمنع المستخدمين من أداء فريضة الصلاة.

وقد أدى هذا التصرف إلى استياء الموظفين المغاربة، واعتبروه "مسا بحرية المعتقد وانحرافا خطيرا من جانب مواطنة أجنبية مقيمة بالمغرب، ويجب أن تحترم قوانينه وأحكامه". ثم فتح مدرسة فرنسية النقاش حول المثلية بعرض صور إباحية على أنظار تلاميذ المرحلة الابتدائية، وهي الأفعال المجرمة قانونا.

وفي تطورات هذه القضية، سجلت بعض عائلات تلاميذ هذه المؤسسة التعليمية شكاية أمام القضاء في مواجهة المدرسة الفرنسية المذكورة، بتهم "سوء معاملة الأطفال بالاعتداء على سلامتهم النفسية وعلى أمنهم بواسطة صور جنسية وإباحية منافية للأخلاق العامة، والتحريض على ذلك باستعمال وسائل إلكترونية والمساس بالثوابت الدستورية وزعزعة عقيدة مسلم".[21]

تراكم هذه الأخطاء المتعمدة في المدارس الفرنسية المتواجدة فوق التراب المغربي، يطرح تساؤلات عدة، ويمكن القول أنها تعكس سياسة موجهة تمس معتقدات الأطفال وتتجاوز القوانين، وتجعل من حدود هذه المدارس فضاء لتصريف أفكار عنصرية خدمة لأجندة سياسية مازالت لليوم تؤمن بالتفوق الفرنسي و عقلية المستعمرات.

خاتمة:

التربية على القيم في المدارس الفرنسية تمثل جانباً أساسياً وحيوياً من نظام التعليم الفرنسي. تتمثل في تعزيز التفكير النقدي، تنمية الوعي الاجتماعي، وتشجيع الابتكار. ويظهر النموذج الفرنسي في تقاريره صورة النموذج الذي يتجاوز الحدود الجغرافية، حيث يؤكد على أهمية تبني قيم عالمية في إعداد الطلاب لمواجهة تحديات متنوعة في المجتمع العالمي اليوم.

على الرغم من ذلك، يظهر البحث على وجه الخصوص أن هناك عدة عثرات في تطبيق هذا النموذج، تتمثل في سياسة القمع وتضييق الحريات بالنسبة للمسلمين الذين أصبحوا يشكلون نسبة هامة في المجتمع الفرنسي، بينما تشجع الأقليات المنافية معتقداتها وتصرفاتها للفطرة الإنسانية.

يبقى الاهتمام بتطوير برامج التربية على القيم من صلب اهتمامات النظام الفرنسي، الذي يهدف إلى تشجيع القيم الأخلاقية والاجتماعية لدى الطلاب مسهما في بناء مجتمع يتسم بالتفاهم والاحترام المتبادل، ومسهما في تكوين أجيال مستقبلية قادرة على تحديات عصرها بفعالية وأخلاقية، في إطار احترام الخصوصية الفرنسية، ويبقى التحدي الأكبر الذي تواجهه هذه المدارس هو توسيع أرضية تنزيل القيم لتستوعب المسلمين، وتحترم مرجعيتهم الدينية وهويتهم الثقافية.

الهوامش:

[1]. E. Durkheim, éducation et sociologie, 4éme ed 1982 ,p 41

[2] Emile Durkheim, éducation et sociologie, 4éme ed 1982, Puf, p 47

[3] مصطفى صويلح. مجالات التربية على حقوق الإنسان .مجلة عالم التربية، 15: التربية على المواطنة وحقوق الإنسان. ص36.

[4]– تقرير التنافسية العالمي الذي يستند ترتيب الدول فيه على مؤشرات تتضمن 12 فئة أساسية، منها: المؤسسات، الابتكار، بيئة الاقتصاد الكلي الصحة والتعليم الأساسي، التعليم الجامعي والتدريب، كفاءة أسواق السلع، كفاءة سوق العمل، تطوير سوق المال، الجاهزية التكنولوجية، حجم السوق، تطور الأعمال والابتكار.

[5] – www.currentschoolnews.com/fr/nouvelles-de-l'éducation/meilleur-système-éducatif-au-monde

[6]– تتسم هذه الدول بالتقارب التاريخيّ، والحضاريّ، والثقافي، ويبلغ عدد دول الإسكندنافية ستة دول رئيسية، وتشمل الآتي: النرويج، والدنمارك، والسويد، وآيسلندا، وفنلندا، وجزر فارو.

[7] www.diplomatie.gouv.fr/ar/politique-etrangere-de-la-france/الفرنكوفونية-واللغة-الفرنسية

[8] –سياسي فرنسي.

[9]– هو أعلى الرتب الكهنوتية في الديانة المسيحية.

[10] – نفس المصدر السابق.

[11]– د.مازن داغوم، قراءةٌ تاريخيَّة للتَّشريعات العَلمانيَّة الفرنسيَّة وعلاقتها بالتعليم،يونيو،2003.

[12] Conseil national d' évaluation des système scolaire, dossier de synthèse, éducation à la citoyenneté à l'école,2016,p11

[13] Conseil national d' évaluation des système scolaire, dossier de synthèse, éducation à la citoyenneté à l'école,2016,p16

[14] Conseil national d' évaluation des système scolaire, dossier de synthèse, éducation à la citoyenneté à l'école,2016,p17

[15] Au coeur de la question : l'éducation civique et la formation aux valeurs, alberta education, p29

[16] مارلين نصر، صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، مركز دراسات الوحدة العربية،1995، ص 30.

[17] عبد الحق بلعابد، سيميائيات الصورة (بين آليات القراءة وفتوحات التأويل)،2009

[18] https://www.diplomatie.gouv.fr

[19] https://www.diplomatie.gouv.fr

[20] TELQUEL " في المغرب تكرس فكرا استعماريا، حمزة ابن البشير السبتي، البعثة الفرنسية 2019

[21] مدارس البعثة الفرنسية بالمغرب تُراكم الأخطاء.. وأولياء التلاميذ يلجؤون إلى القضاء، أحمد والزهراء، الثلاثاء 4 أبريل 2023، مجتمع.